صوت المدافعين أقوى من الأصوات الناقدة

كيف ترى الروايات والأفلام نهاية العالم والإنسان

سرديات القيامة تحاول إنقاذ البشر من الخطر الداهم

تزخر السينما وأدب الخيال العلمي بأعمال تهتم بنهاية العالم، نتيجة كارثة بيئية أو نووية أو وبائية، وتستبق ما قد ينجر عنها من زوال الحياة كلها أو بعضها على وجه الأرض، بما في ذلك حياة الإنسان. فهل أن غاية تلك الأعمال تحذير الإنسان أم تخويفه، أم أنها نقد تسلطه بأشكال فنية على الواقع الراهن، بكل تجلياته؟

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

لم تكن الثورة الصناعية علامة تطور وتقدم ورخاء فقط، بل كانت أيضا مصدر تخوّف من المصير الذي قد تؤدي إليه الآلة ومتطلباتها، فمنذ بدايتها شغل الأدب الغربي، في جانب منه على الأقل، بتصور نهاية العالم، هذه النهاية التي كانت من قبل تُعزى في المخيال الجمعي إلى غضب الآلهة أو الظواهر الطبيعية الخارقة، ثم صارت ناجمة عن فعل الإنسان ومخترعاته، وسعيه المحموم للسيطرة على الأرض ومواردها.

فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ظهرت نصوص تحذر من إمكانية زوال الوجود الإنساني على الأرض في يوم ما، بسبب هذا التقدّم الذي جاء به. يمكن أن نذكر رواية الفرنسي جان باتيست كوزان دو غرانفيل "آخر البشر" التي صدرت عام 1805، وقصة الأميركي نثانييل هاوثورن "آدم وحواء الجديدان"، الصادرة عام 1843، أو رواية الإنجليزي رتشارد جيفريس "بعد لندن" التي نشرها عام 1885.

المخيال القيامي

بمرور الزمن وتطور التكنولوجيا، لم تعد تلك المخاوف مجرد شطحات أدبية، حيث لاحت في الأفق مخاطر حقيقية كالحرب النووية، والتغير المناخي، والأسلحة الكيميائية أو البكتيرية، ما جعل الثيمة القيامية حاضرة في أعمال بعض الأدباء وكتّاب السيناريو، تلك التي تستثمر وتغذي الشعور بنهاية كارثية ممكنة مثل شريطي "اليوم التالي" و"2012" للألماني رولاند إيمريش، وحاضرة أيضا في أذهان العلماء أنفسهم، حتى أن بعضهم وضع "ساعة كارثية" كاستعارة عن وشك تدمير البشرية ذاتَها بسبب الأسلحة النووية والتغير المناخي، وعقارب تلك الساعة تعدّلها "نشرية علماء الذرة"، وهي مجموعة مؤلفة من علماء مشروع منهاتن بجامعة شيكاغو كانوا قد ساهموا في صنع القنبلة النووية، ولكنهم احتجّوا على استعمالها ضدّ البشر.

هذه الساعة تقول إن البشر باتوا على شفا مئة ثانية من منتصف الليل، أي أن الوقت أمامهم لتدارك الكارثة لا يني ينحسر باطّراد.

حول تخيل نهاية العالم في الأدب والسينما، صدر مؤخرا كتاب بعنوان "الإيهام بنهاية العالم – القوة النقدية للسرديات القيامية" لجان بول أنجيليبير، وهو باحث في الأدب المقارن، ركز فيه على عدد من الأعمال الفنية، أدبية وسينمائية، تشترك في كونها لا تتعامل مع تدمير الكوكب كمشهد فرجوي، بل تحاول أن تقدم طريقة أخرى للتفكير في الحاضر، وتجنب رؤية مستقبل بلا أمل.

إن المخيال القيامي، كما في مثال "الساعة الكارثية"، يطرح الزمن في الغالب بوصفه تطورا خطّيا، لا محيد عنه، يسير من الحاضر إلى المستقبل؛ بيد أن السرديات القيامية تندرج في أزمنة أخرى، خارج هذه الكرونولوجيا، فهي تفتح ثغرة في الحاضر لتضع الحدث في أثناء الكارثة أو بعدها. من ذلك مثلا ثلاثية "آدم المجنون" التي صدرت للكندية مارغريت أتوود عام 2015، وتصوّر الحياة قبل أن تعمّ جائحة

الكتاب يتناول بعمق تخيلات نهاية العالم في الأدب والسينما ويحلل ما يسميه بـ«ما بعد الإنسان»

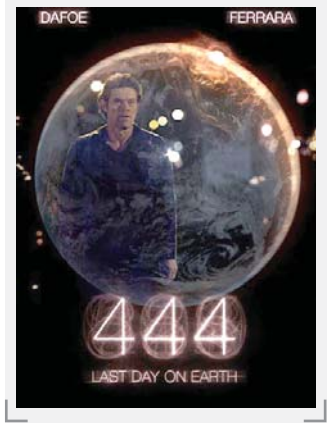

أهلكت السواد الأعظم من البشر، وما تلاها.

الرواية تخلق حدثا خالصا، بشكل يسمح بتحديد الزمن بين كايروس (الزمن الملائم) وكرونوس (الزمن الخطي أو المتواصل)، وإحلال الأحداث حسب ذلك البُعد. وغاية الكاتبة لم تكن التنبؤ بجائحة مدمّرة (لم يكن العالم قد أصيب بالكورونا وقتها) بل تستعين بتلك الفكرة لتبين أننا نعيش الآن نوعا من القيامة. فالقيامة في رأيها ليست وشيكة بل كامنة، والناس يعيشونها كل يوم، ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يرونها، وهو ما سبق أن تعرض له جوزي ساراماغو في رواية "العمى" حين صوّر وباء أصاب بلدا كاملا بفقدان البصر، باستثناء امرأة واحدة، ستحاول قيادتهم خارج تلك الظلمات.

في اختياره للأفلام القيامية ركز الكاتب على أفق جديد للزمن بهدف الخروج من نمط التاريخية الراهنيّة (أي التي لا تقيم وزنا إلا للحظة الراهنة)، من خلال أفلام مثل "مالنخوليا" للدانماركي لارس فون تريير، و"على الشاطئ" للأميركي ستانلي كرامر، و"آخر يوم على الأرض" للأميركي أبيل فيريرا، ليستخلص أن انتظار القيامة هو الذي يخلق المعنى، ما يسمح بنسج روابط صداقة وحب بين الأفراد وهم ينتظرون النهاية المحتومة، وتعويض صور الدمار والحدث الجلل بتجربة المهلة التي تسم كل فترة، كي تقطع تدفّق الزمن. هذه النظرة إلى زمن المهلة يُولّد وعدا بشيء آخر، بملاذ مثلا كما في "مالنخوليا" أو إمكانية علاقة عاطفية.

ما بعد الإنسان

إن الهوس بالسيناريوهات القيامية قد يجلب نوعا من النيهيلية، ورفضا معطّلا قد يلغي كل خلق سياسي، ففي حالة الاحتباس الحراري مثلا، عادة ما يعاب على الخطاب البيئي شعور بعجز يبدو محتوما وكارثيًا بالضرورة. وبدل أن يقابل أنجيليبير تلك الحتمية بتفاؤل ساذج، يستعيد مبدأ "طاقة اليأس" التي جاء بها الشاعر الفرنسي ميشيل دوغي، وكان دوغي قد أكّد أن الوعي الإيكولوجي يمكن أن يقود إلى التزام جديد في هذه الفانية، فلا يكون دور الأدب إنقاذنا من الأزمة البيئية، وتجاوزها، بل إعادة شروط الأدب بوصفه تمثّلا.

ولكي يبيّن أنجيليبير كيف تعمل تلك الطاقة، استحضر ثلاث روايات هي "الملائكة الصغار" لأنطوان فولودين، و"الطريق" لكورماك ماكارتي، و"آخر عالَم" لسيلين مينار. في كل رواية تكون نهاية العالَم منطلقا نحو عالَم آخر ممكن وغير ممكن، ففي رواية فولودين يظل الناجون من الكارثة هائمين في عالم معاد، غير أن الأثر لا يجنح إلى النيهيلية، بل يولّد طاقة خلق لساني، ويحلّل السلطة الأدبية للالتباس والمأزق السياسي للقيامة. وفي رأيه أن "التخييل هنا لا يفتح أبواب الأمل، حتى يمنح الحالم طاقة البقاء، وفي الأقل لا ينتزعها منه".

ويلاحظ الكاتب أيضا أن تصوير العوالم البديلة بعد الحدث الكارثي يطغى عليه عنف شديد مروّع، ينبغي وضعه في سياق خروج ضروري ممّا بعد الحداثة، وفي سياق "كارثة حضارية" بعبارة الفيلسوف جان كلود نانسي، فأعمال العنف في بعض الروايات يمكن أن تزيل مجتمعات بحالها، خاضعة للتقدم ورأس المال، ما يسمح بإعادة تشكيل مجتمعات بشرية وغير بشرية.

> القيامة ليست وشيكة بل كامنة والناس يعيشونها كل يوم، ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يرونها لذا يذكرهم بها الفن

من ذلك مثلا رواية "مالفيل" لروبير ميرل التي تخلق ظروف وضع طبيعي تحاول فيه مجموعة من الناجين خلق مجتمع تسوده المساواة، أو سلسلة "المُهمَلون" التلفزيونية التي تكشف عن مجتمع غير متسامح يتألف من مجموعات صغرى تحاول فيه كل واحدة أن تفسر الاختفاء الفجئي لعدد من البشر.

هذان المثالان اللذان يطرحان مسألة إعادة البناء الاجتماعي يظلان ملتصقين بمركزية الأنثروبوسين (المرحلة الجيولوجية الحالية)، بينما تسعى "آدم المجنون" إلى العمل التفاوضي والترجمي بين مختلف المجموعات الهجينة التي تضم البشر والحيوان والبيوتكنولوجيا، ما يعني أن أنموذج الذات البشرية المستقلة تترك مكانها للفكرة القائلة إن الحياة تنسجها بالضرورة روابط هشاشة وتكافل وتكامل.

في تحليله لما يمكن تسميته بـ"ما بعد الإنسان"، يؤكد أنجيليبير على استمرارية السرديات القيامية منذ نقد غرانفيل للتقدم وفلسفة الأنوار، وتقطّعاتها المتعددة في الوقت نفسه، ما يضعها خارج أي تاريخية بسيطة أو خطّية فهي، بما فيها من تنوع سياسي، ترفض الخطاب الذي يجعل من الأنثروبوسين ناتجا عن ميول كونية وتلقائية للأنثروبوس (أي الإنسان في مفهومه النوعي).

إن تلك السرديات هي في الواقع مقاومة لميثولوجيا التقدم عبر نمو رأس المال، تسمح لنا بأن نتنزّل في السلبي كي نتخيل مستقبلا آخر، وهي إلى ذلك نقدٌ واعٍ لما يعيشه العالم اليوم، لكونها تفكك التصورات المعتادة. وبالرغم من أنها لا يمكن أن تنقذ البشرية من "الخطر الداهم"، فإن فضلها تنبيه الناس إلى أخذ رسائلها على محمل الجدّ.

أنطونيو ماتشادو الشاعر الذي غيرت زوجته طريقته في الكتابة

عمان – يقدم كتاب "خطوات وأروقة وقصائد أخرى يليه حقول قشتالة" للشاعر أنطونيو ماتشادو ترجمة عربية جديدة قام بها خالد الريسوني لواحد من رموز الحداثة الشعرية الإسبانية.

إن المسار الشعري لماتشادو ينطلق من الشعر باعتباره رصدا للزمني الذي يتحقق عبر اللغة وخارج الزمن. إذ يتوسل أحيانا بالذاكرة ليعيد ترتيب الوجود، وأحيانا أخرى يتوسل بالحلم وبالحياة في حركيتهما وتداخلهما لينسج لنا فرادة القصيدة في رحلتها الاستكشافية عبر مجاهل الوجود واللغة وهما تحاوران ذكريات الطفولة بإشبيلية وصور الشباب وهو يخطو بإصرار باتجاه الحب والحرية في أرض قشتالة.

ولد ماتشادو بإشبيلية 1875، في كنف أسرة مثقفة، ليبرالية وتقدمية من جهة أبيه، وقد أثر أبواه وأجداده بشكل عميق في حساسيته وفي اختياراته وفي تنشئته، وهو بالكاد يذكرهم في أعماله.

وكان ماتشادو يتمتع بموهبة لا توصف، وكان شعره جزءا من جيل 1898 في إسبانيا، وقد تأثر كذلك بشقيقه مانويل ماتشادو، الذي كان هو الآخر شاعرا.

كما نقرأ في النصوص المترجمة في هذا الكتاب الصادر عن دار خطوط وظلال بعمان، نلاحظ تأثير حياة الشاعر بشكل كبير في قصائده، إذ انعكست تفاصيل تنقلاته ودراسته والشعراء والأدباء الذين عاصرهم عليه بشكل لافت، وهو الشاعر الذي ثار على كل من أثروا فيه ليخط لنفسه نهجا خاصا.

وتميزت حياة الشاعر الجامعية بتأثير بعض أساتذته الذين حافظ على علاقته بهم بما فيها من عاطفية وحب كبير وعرفان بالجميل، ومع ذلك، لم يشعر مطلقا كما بيّن أكثر من مرة بالراحة في الكلية أو المدرسة وما تقدمانه؛ وهذا ما اعترف به في سيرته الذاتية قائلا "ليس لدي أي أثر سوى النفور الشديد من كل شيء أكاديمي".

وعكس أنطونيو في أعماله ذكريات طفولته وأسفاره وحبه ومغامراته متحديا الأطر الرومنسية التي كانت متداولة بشدة في الأدب الإسباني أواخر القرن التاسع عشر، وقد ألف مجموعة بعنوان "ذاكرة الطفولة" وهي من بواكير كتبه الشعرية، تأكيدا على أهمية النهل من الطفولة التي رافقت حتى قصائده المتمردة لاحقا.

وخلال السنوات الأولى من حياة الشاب ماتشادو عاش لحظات خاصة خلدها من خلال الكتابة ومن بين هؤلاء شخصية والده الذي كان في مكتبه، والأماكن التي كان يتردد عليها في أيامه البريئة.

وكان الاتجاه الشعري للحداثة هو ما يميز نصوص الشاعر في بداياتها، فقد اعتاد على الكتابة بطريقة غامضة ومكررة، مثلما فعل في قصائد العزلة التي نشرت عام 1903، والتي رسخت اسمه كواحد من التجارب الشعرية الجادة حينها.

لقد تعامل مع الرومانسية وتفكيره العميق ببراعة، مكنته من التميز مقارنة بأبناء جيله، إذ تميزت نصوصه بما قدمته من التقاطات ساحرة للبيئة وكآبتها بكلمات مختارة بعناية.

من الحنين إلى الماضي والأصالة واليوتوبيا التي كانت سمات الاتجاه الأدبي لشعراء مطلع القرن الماضي، وكانت أيضا أساسا لظهور بعض إنتاجات ماتشادو نفسه؛ مستوحى من إسبانيا وحبه لزوجته ليونور، نجد الشاعر ينقلب على نفسه ليخوض في مناطق فلسفية رحلة شعرية قاسية.

الرومانسية انقلبت لاحقا عند الشاعر إلى قصائد مشحونة بألم عنيف، فمن الواضح أن ماتشادو انعكست مشاعره بعد موت زوجته وتقهقر أمنياته للمضي قدما كما أنها كانت تثير الأمل في كثير من الكتابات.

> كتاب «خطوات وأروقة وقصائد أخرى يليه حقول قشتالة» قصائد تشبه السيرة لواحد من رموز الحداثة الشعرية الإسبانية

وبدأ مرحلة جديدة مع كتابه "كامبوس دي كاستيلا"، وهو كتاب قصائد نُشر عام 1912، يُعبّر فيه عن طبيعة الأراضي الإسبانية والحياة الصعبة فيها، ويصف واقعا مأساويا.

وكانت خصائص الحداثة واضحة في قصائده ولو أنه كان يرسخ إبداعه من باب الكآبة واللغة الأرستقراطية، إلا أنه اهتم بأدق التفاصيل حتى أن قصائده تشابه في أحيان كثيرة اليوميات أو اللقطات السينمائية.

وسيطرت الرمزية وأسئلتها الوجودية على قصائد ماتشادو، التي اختار منها الريسوني نصوص الكتاب الجديد للشاعر، الذي استغل في نصوصه كل التفاصيل محولا إياها إلى شعر يشبه السيرة الغنائية، فيما حاول الحفاظ على الموسيقى في أبياته، هكذا كان أسلوبه الذي رسخ حميمية كبيرة في شعره، الذي وإن انطلق من الذات فإنه لا يكتفي بها.

وظلت أفكار وعبارات ماتشادو تركة للبشرية، بدأ هذا الكاتب المسرحي والشاعر الإسباني، وهو عضو في الحركة الأدبية أطلق عليه اسم الجيل 98، في التيار الحديث، وتحول في وقت لاحق إلى شاعر غنائي مع محتوى رمزي وفلسفي. فيما اعتبرت أعماله من بين أهم الأعمال في الأدب الإسباني لما امتازت به من رؤية واضحة وأسلوب فريد.

شاعر وجودي ورومانسي في نفس الوقت